عصر ابـــن رشـــد

د. أبو عمران الشيخ*

إن هذا الملتقى يأتي بعد الذي نظمه المجلس سنة 2003 في موضوع "شروط الحوار المثمر بين الثقافات والحضارات" وكان القصد من ذلك الردّ على نظرية صدام الحضارات التي جاء بها اثنان من الأساتذة الجامعيين الأمريكيين، وهي نظرية غير سليمة كانت الغاية منها سيطرة دولة عظمى على بقية العالم، مبررة بذلك موقفها، رغم أن هناك حضارات أخرى عريقة ومتأصلة حقيقة، كانت هناك، من حين لآخر، حروب بين هذه الدولة وتلك، ولكن العلاقات كانت وطيدة ومتواصلة بين الشعوب في المجالات الثقافية والسياسية و الاقتصادية.

إذا ألقينا نظرة سريعة على تاريخ الحضارات، نلاحظ عادة أنه كان بينها أخذ وعطاء في تبادل المنتوجات والأفكار والكتب والعادات والتقاليد. أما الصراع المزعوم بينها، فإنه تصوّر وهميّ لا يثبته الواقع، وبصفة خاصة، إن العلاقات بين الشرق وأوربا تؤكد ذلك التأثير والتأثر بينهما، وذلك دون الفوارق التي يتميز بها العراق من جهة والأندلس من جهة أخرى.

على ضوء ما سبق، اخترنا موضوع هذه السنة "الحضارة الإسلامية بالأندلس" تفنيدا لنظرية الصراع وركّزنا على فترة تاريخية مميزة، هي عصر ابن رشد في القرن السادس الهجري/القرن الثاني عشر ميلادي، إذ الحضارة الإسلامية في الأندلس عرّفت الغرب بالثقافة العربية والاكتشافات العلمية التي ازدهرت في العاصمة العباسية أو بالثقافة التي انتشرت في الأندلس.

---

* رئيس المجلس الإسلامي الأعلى.

1. المجتمع الأندلسي

يتميز المجتمع الأندلسي باختلاط السكان وتقاربهم بفضل الثقافة العربية من جهة، ومصاهرة الأسر من جهة أخرى؛ فحصل تعايش طبيعي بين مختلف الشرائح الاجتماعية في الحياة اليومية والذي قال عنه أحد المؤرخين إنه "انصهار بين العنصر السامي والعنصر الآري"[1] وتيسّرت المعاملات بين الناس إذ كانت لهم لغة مشتركة؛ وهي اللغة العربية التي عمت القطر، يتكلم بها المسلمون والمسيحيون المستعربون (الموزاراب) واليهود.وفي نفس الوقت،كانت هناك لغات أخرى خاصة بهذه الجماعة أو تلك وهي اللاتينية،والإسبانية والعبرية. أما في المجال الديني، فكان أهل الكتاب يمارسون شعائرهم بحرية تامة دون أي تدخل من قبل الدولة الإسلامية إذ الإسلام يضمن لهم ذلك.

إن الديانات الثلاث تعايشت في الأندلس وتعاملت فيما بينها تعاملا ساده التسامح والتفاهم وذلك لأن الإسلام جاء مكمّلا للديانتين السابقتين كما أن السكان كانوا يتعاملون فيما بينهم معاملة حسنة طبيعية. وتقلّد عدد من السكان الغير المسلمين مناصب هامة في الدولة ومارس غيرهم نشاطهم في التجارة والفلاحة والطب وما إلى ذلك، واشترك جميعهم في حضارة واحدة، هي الحضارة الإسلامية، على أساس الإحترام المتبادل بين المعتقدات. وفي نفس الوقت، دعّم أولئك الذين اعتنقوا الإسلام منهم الروابط والأواصر بين المسيحيين والمسلمين.

---

1. راجع كتاب : A. Clot *"l'Espagne musulmane"* ص 241.

2. حركة الترجمة

كانت الترجمة تتمّ من العربية إلى اللاتينية أو بواسطة العبرية أو الإسبانية وفي الواقع، فإن هذه الحركة بدأت منذ القرون السابقة إلا أنها ازدهرت بصفة خاصة في القرن الثاني عشر، رغم الاضطرابات والحروب التي كانت تقع هنا وهناك.وأهمّ المدن التي تركزت فيها حركة الترجمة هي قرطبة وإشبيلية وغرناطة وسارغوسطا. وتكوّنت في مدينة توليدو خاصة مجموعة من المترجمين، إمّا من السكان الأصليين وإمّا من خارج الأندلس،من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من البلدان الأوربية، نذكر منهم خاصة جيرار ديكريموني من إيطاليا، وميشال سكوت وآديلار ديبار من بريطانيا. وقد استقر هؤلاء كلهم في توليدو.

وفيما يتعلّق بالآثار التي نُقِلت إلى الأندلس، فهي كتب واردة من بغداد خاصة ومن الشرق عامة، وكلها متعلقة إمّا بالثقافة والعلوم العربية الأصيلة أو الجديدة في ذلك العصر من فلسفة وطب ورياضيات إلى غيرها، وإما من التراث المترجم من اليونانية أو الفارسية أو الهندية. وبعبارة أخرى، فإن علماء الأندلس في ذلك العهد اهتمّوا بطبيعة الحال بالفلسفة والأدب العربي والطب والعلوم الدقيقة.وهذا ما أشار إليه المؤرخ، العالم الإسباني، الأستاذ خوان فيرنيت الذي اعتبر هذه الفترة "الأعظم ازدهارا في تاريخ العلم الإسباني"[1] وبالإضافة إلى ذلك،اعتنى المترجمون في الأندلس بفلسفة أريسطو، نذكر منها "المقولات"، "ما بعد الطبيعة" وكتب أخرى، دون أن ننسى "شروح" ابن رشد المشهورة وقد أخذ علم الفلك حقه من العناية مثل "الماجيستي" لبطليموس، والحساب للخوارزمي،ومبادئ الهندسة لإقليدس،وكتاب التيسير في الطب لابن الزهر ومؤلفات أخرى للفارابي وابن سينا والغزالي وغيرهم.

---

1. راجع كتاب : *"Ce que la culture doit aux Arabes d'Espagne"* نشر دار سندباد 1985، ص 256.